في الدعوة والحركة

بين الظواهر والأصول

نبيل شبيب

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَــاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَــالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨]

ما كان الواقع السياسيّ في عصر من العصور أشدّ تعقيداً منه في هذا العصر ، وهذا ما يسري على سائر الجوانب غير السياسية أيضاً للحياة البشرية المعاصرة .. ولهذا فمن العسير إلى حدّ بعيد أن يتناول أيّ دارس للواقع الــسياسيّ العالميّ المعاصر جوانبه الظاهرة للعيان بقصد التحليل ثمّ يصل رغم تعدّدها وتشابكها إلى نتيجة واضحة ومبسّطة لكلّ من يريد أن يفيد من هذا التحليل في واقع حياته

وربّما كان من أخطائنا أن نحاول نقد الواقع السياسي المعاصر بنقد ظواهره السلبية المعروفة لسائر النّاس بــصورة عامّة ، كالحروب المدمّرة ، والاستغلال المقيت ، والتبعيات الذليلة ، والنــزاعات الأنانية ، وهدر الطاقات فيمــا لا فائدة فيه أو ما ظهر ضرره ، وتفاوت درجات الفقر والغنى إلى ما لا حدّ ولا مبرّر له ، والمجاعات والبؤس والمــرض وألوان المآسي الأخرى ممّا لا يكاد يمكن حصره

والكلام في هذا يعيد بعضه بعضاً حتى ليكاد ينصرف عنه من يفتّش عن المخرج من هذا كلّه . ويوشك الكاتب في حديثه عن ذلك أن يعرض على الناس ما هم أعرف به منه ، فهو إن عايش جانباً من الجوانب لم يعايشها جميعاً ، وإن وصل بالبحث والدراسة إلى قناعة من القناعات فربّما سبقه إليها عامّة الناس بالخبرة والتجربة الحيّة وبدفع الثمن الباهظ بما يجعلها أثبت في أعماقهم من كلامه .. ثمّ إنّه ليبقى في نقده مركّزاً على ظواهر القضية لا علــى أصــولها ، وعلى نتائج المرض وعوارضه لا على مسبّباته ، والناس يشكون من تلك الظــواهر والعــوارض والنتــائج .. فهــم يعرفونها .. يعلمون بغالبيتهم العظمى أنّ الواقع الراهن فاسد ، ولا يمنعهم –وهم أشدّ من الكاتب رغبة في الــتخلّص منه– أن يتحرّكوا في هذا الاتجاه إلاّ جهلهم بمسبّبات المرض أو إعراضهم عن النظر إليها .. أو بعد الطبيب عنــهم .. أو عجزه عن وصف الدواء لهم

ويكتفي معظم العاملين للإسلام هذه الأيام بالتأكيد على أنّ الغرب منحلّ مستغلّ وأنّ الشرق ملحــدٌ مــستبدٌ ، مبرزين بذلك أظهر السمات من الجانبين .. وهذا صحيح ، وهو من منطلق الإسلام وبمقياسه .. ولكن من الــذي لا يزال يجهل ذلك من المسلمين ؟ ..

إنّ استهواء المسلمين للمذاهب الأجنبية يتمّ غالباً تحت شعارات برّاقة ، وليست الشعارات سوى كلمات تــربط بين مبدأ موضوع وأهداف يتطلّع إليها الإنسان المطلوب استهواؤه بها .. ثمّ يصوّر له أو يخيّل إليه عن طريق القادرين على إقناعه نفسانياً وموضوعياً وجود تطابق بين تلك الشعارات وأهدافه ، فإذا به يصبح تابعاً للمبدأ الموضوع .. من غير بصيرة نافذة في غالب الأحوال

ومتى ترسّخت هذه التبعية النفسانية الداخلية أو الموضوعية المنتسبة إلى (فكر حرّ) ، أصبح مــن العــسير علــى صاحب البديل الصالح أن يصل إلى وجدان من وقع في التبعية أو عقله .. وذاك أغلب ما يواجه المــسلمين العــاملين للإسلام بإخلاص وعن بصيرة وهذا يحاولون الوصول إلى قلوب إخوتهم وعقولهم .. وقد يخطــئ هــؤلاء العــاملون للإسلام آنذاك فينسبون هذا العجز لعناد في نفوس إخوتهم المسلمين بدلاً من استمرار ثقتهم بحسن نوايــاهم وطيــب طويّاتهم .. إذ يجدون تلك القلوب والعقول مشغولة من قبل بما يشبه أصناماً يتعصّب لها الأتباع تعصّب من لا يريد أن يشعر أو يسمع أو يرى ..

ولا يكاد يمكن كسر هذين الحاجزين النفساني والموضوعي إلاّ بأمرين اثنين :

▪ أوّلهما : أن يكون الداعية نفسه على جانب عظيم من القناعة الوجدانية والعقلية بما يقول ، ومعرفة بصيرة بمــا يدعو إليه ، وإحساس عميق بالأخوّة التي تربطه مع من يدعوه ، وتطبيق حيّ لما يعتقد بصلاحه وتفوّقه على ســواه ، وقدرة فائقة على ممارسة الأسلوب المؤثّر المقنع والمتلائم مع كلّ ظرف من الظروف .. آنذاك فقط يمكن لمن أراد الله به خيراً أن تشتعل في قلبه جذوة الإيمان التي تعهّد ربّ العالمين بوقودها بتعهّده بحفظ القرآن الكريم

▪ والأمر الثاني : أن يكون الداعية نفسه على جانب كافٍ من المعرفة بتلك المبادئ الوضعية كنظرية وتطبيــق ، ومن القدرة على بيان حقيقتها -بصبر كبير- من خلال الواقع المحسوس -وباستعداد جسيم- للتضحية على طريــق إنقاذ الناس منها وردّهم إلى الصراط المستقيم ، -وببراعة المؤمن المسلم- في ربط هذا كلّه مع ما يمسّ الأهداف الــتي ترتبط بالحياة اليومية للمسلم الذي استهوته هذه المبادئ بشعاراتها ..

ولا بدّ أن يقترن هذان الأمران باستمرار باستعلاء المسلم بإسلامه على الباطل ومبادئه الوضعية

من خلال تجارب عشرات السنين الماضية لم يعد ينقص كثيراً من المسلمين الاقتناع بأنّ المبادئ الوضعية -وأبرزها الرأسمالية بشيابها الليبرالية ، والشيوعية بشيابها البروليتارية- غير صالحة للتطبيق في بلاد المسلمين .. ولكنّ كــثيراً مــن

المسلمين أيضاً لا يزال تحت وطأة الانبهار بما تصوّره له الشعارات البرّاقة المرفوعة أنّه إنجازات ضخمة للرأسماليـــة في أرضها وللشيوعية في أرضها .. وهذا الانبهار بالذات هو الذي يولّد القابلية للتبعية ، والقابلية للتبعية تفتح الأبـــواب للتطبيق بالتقليد والتبعية الواقعية عبر كثير من أساليب المخادعة والمراوغة

والعمل الإسلاميّ مطالب بإقناع عامّة المسلمين وليس عامّة العاملين للإسلام وحدهم .. بحقيقة لا تزال غائبة عن الأذهان إلى حدّ كبير ، حقيقة فشل تطبيق المذاهب الغربية في أرضها لفسادها أصلا ، وفشل تطبيق المذاهب الشرقية في أرضها لفسادها أصلا .. رغم مظاهر الإنجازات الضخمة

العمل الإسلاميّ مطالب بأداء مهمّة جسيمة على هذا الصعيد ، بل هو مسؤول عن ذلك مسؤولية دينية وتاريخية كبيرة .. أن يبيّن للمسلمين بل لعامّة البشر ، أنّ هذه المبادئ الوضعية لا تفقد صلاحية التطبيق في بلادنا الإســـلاميّة لأنّ بلادنا إسلامية (واليوم تواجه هذه الحجّة بمحاولة الإيهام بتطبيق أنظمة مزيج من المذاهب الوضعية والإسلام!) بل لأنّ تلك المبادئ الوضعية نفسها غير صالحة للبشر كبشر ، بل هي المصدر المباشر لكلّ ما يعانيه الإنسان في العـــصر الحاضر من عبودية وقهر واستغلال وتخلّف ودمار .. وهذا ما يمكن أن يستهدفه التحليل الموضوعي للواقع الـــسياسي العالمي المعاصر ونقده

وإذا نجح العمل الإسلاميّ في أداء هذه المهمّة الجسيمة ، والتي تتطلب جهوداً كبيرة ولاشكّ .. أصبحت قـــضية طرح البديل الإسلاميّ على أرضية جديدة غير الأرضية الحالية .. فآنذاك يبحث المسلمون ويبحث عامّة الناس عـــن البديل فيقدّم إليهم ، ولا يكون حال المسلم الداعية معهم حال الباحث عن ثغرة ينفذ منها عبر جدران المقاومة والصدّ والرفض

وبالعودة إلى دور الشعارات في استمالة الأتباع وارتباطها بأهداف يتطلّع إليها الإنسان بطبيعة فطرته في أيّ مكان وأيّ عصر ، نصل في نفس الوقت إلى مقاييس يمكن أن يقوم عليها التحليل والنقد

إنّ أهداف الإنسان في الدنيا متركّزة على قضايا محدّدة منذ القدم وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. لأنّها مستمدّة من فطرة الله التي فطر الناس عليها فتبقى هي المحور (النظري) لادّعاء كلّ مبدأ الصلاحية لنفسه ، وإن زيّفت على صعيد الواقع التطبيقي .. وهي

- قضية الحرية .. وما يرتبط بها من حرية الفرد واستقلال الدولة
- قضية الكرامة .. وما يرتبط به من كرامة الفرد وسيادة الدولة[1]
- قضية العدالة .. وما يرتبط بها من قضايا المساواة والتكافؤ والأمن ، وضمان الحقّ وسيادة القانون

■ قضية التقدّم .. وما يرتبط بها من قضايا تلبية الحاجات البشرية بمختلف جوانبها المادّية والمعنوية

إذا أمكن بيان وضع هذه القضايا في واقع السياسة العالمية المعاصرة ، ثمّ أمكن بيان حقيقة ما تقوم عليه العلاقات السياسية العالمية المعاصرة على مستوى الدولة والمنطقة والعالم ككلّ ، أمكن للمنصف أن يصل إلى حكم نزيه يستند إلى ما تنادي به المبادئ الوضعية السائدة في هذا الواقع من شعارات وتقول إنّها مستمدّة من الأصول التي تقوم عليها وتطبّقها في الأرض

ويحتاج تحليل الواقع السياسي العالمي المعاصر ونقده من الكتّاب والمفكّرين الإسلاميّين ولا سـيّما المختـصين إلى جهود تبذل إلى جانب الجهد الأصلي المطلوب في بيان البديل الإسلاميّ ، وبما يتجاوز حدود أسلوب الكتابة الفكرية المعتادة في الأبحاث إلى اتباع وسائل التعبير المختلفة الأخرى ، ممّا يتسع له صدر لغة قرآننا العظيم ، من قـصة وأدب وشعر ومقالة ومسرحية .. وممّا تبدعه المواهب الملتزمة على صعيد الصورة والرمز ، لنصل بذلك إلى قلـوب عامّـة المسلمين فنحقّق يقظة الوجدان وإلى عقولهم لنحقّق مع الزمن نهضة الفكر بعون الله[٢]

ويبقى الباحث الموضوعي الإسلاميّ من قبل ذلك وبعده على قناعته باستخدام هذا الأسلوب للتحليـل والنقـد كوسيلة مقبولة ، وليس -بالطبع- لعدم توفّر أسباب كافية لقناعة أصلية من منطلق الاعتقاد الإسلاميّ حول فـساد الواقع السياسي الراهن من جذوره ..

يكفي المسلم المخلص العامل في الأصل أن يقول : قد نظرت في هذه المذاهب الوضعية جميعـاً نظـرة واحـدة فوجدتها قائمة على غير الإيمان بالله وشرع الله فهي فاسدة بفساد تصوّرها عن الوجود والكون والحيـاة البـشرية ، فكيف ينتظر منها أن تكون المبادئ القويمة لحياة بشرية قويمة ؟ ..

ولكن ربّما كان ممّا يساعد على إقناع المسلم الذي بهرته الشعارات ، أو الذي حسب بحدود تفكـيره أنّ تلـك المذاهب صالحة بعض الصلاح أو كلّه .. طريق البيان والتعليل بمنطق تلك المذاهب نفسها ، وبإسقاط حججها مـن خلال واقع تطبيقها .. سالكين في ذلك سلوك القرآن العظيم وهو يفنّد حجج الكافرين والمنافقين باستعارة مـنطقهم حيناً وبزجرهم من خلال واقعهم حيناً آخر

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَـرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِـهِ فَتَـشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد : ١٦]

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [فاطر : ٤٠]

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨]

ولقد سلك علماؤنا ممّن هم موضع التقدير والاقتداء على مرّ العصور ، سبيل مواجهة ما شهدته عصورهم من أفكار ومذاهب وضعية بأسلوب التحدّي بالإسلام نفسه ، وأسقطوا حجج تلك المذاهب حجّة بعد حجة في عالم الفكر والواقع على السواء ، وأعطوا من إنتاجهم على هذا الصعيد ما لا يزال إلى اليوم ذخراً للمسلمين جميعا .. فكان أن أثبت بعضهم تهافت فلاسفة عصره وكشف تخرّصات الباطنيين في عهده قبل أن يضع (منهاج العابدين) و(إحياء علوم الدين) .. كما كان من نقض كلام القدرية وأعطى (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح) .. وهو يحدّد معالم (العبودية) ويعطي (الفتاوى الكبرى) للمسلمين ليعودوا بدينهم إلى أصوله من القرآن والسنة [٣]

ونسأل الله عزَّ وجلَّ أن يكون للمسلمين على الدوام من يكشف الحقّ من الباطل بعون الله

---

(١) يشمل مصطلح (سيادة الدولة) في مفهوم أغلب نظريات العلوم السياسية والقانون الدولي الحديث مصطلح (الاستقلال) ، ويعتبر أحد أركان وجود الدولة الأربعة : أرض وشعب وسلطة وسيادة .. إنّما تؤخذ عليه وعلى المفاهيم الاصطلاحية الأخرى بعض المآخذ ، ممّا يستدعي أن تطرح هذه المفاهيم طرحاً إسلامياً معاصراً ، لا ينبغي إغفال عامل (الحق) فيه .

(٢) أغلب ما ظهر من كتب تحليلية في هذا الموضوع فكريّ الأسلوب رفيع المستوى والتخصّص أحيانا .. ومن ذلك على سبيل الإشارة ، وبغض النظر عن وجهة الكاتب :
(دراسات في الاقتصاد السياسي) لعيسى عبده و(أفيون الشعوب) لعباس محمود العقاد ، وللأخير أيضا : (الشيوعية والإنسانية .. وفي الموضوع أيضا : (تهافت العلمانية) للدكتور عماد الدين خليل ، و(تهافت الفكر المادّي التاريخي) للدكتور محمد البهي .. ومن الكتب ذات الأسلوب الأسهل : (الإسلام والرأسمالية) لسيد قطب و(في النفس والمجتمع) لمحمد قطب ، و(واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) لأبي الأعلى المودودي .. ولكن تكاد تخلو المكتبة الإسلاميّة من كتاب ينقد الواقع السياسي المعاصر بأسلوب القصة أو المسرحية الملتزمة بالأدب الإسلاميّ وبمستوى يذكّر بمثل (دكتور شيفاجو) و(الشيخ والبحر) و(ذهب مع الريح) وغيرها من القصص العالمية الناقدة ..

(٣) لا يخفى أن التنويه ينصرف على حجة الإسلام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله